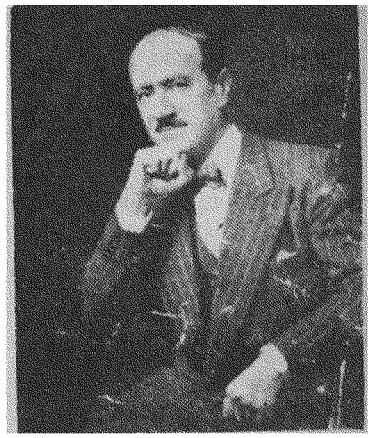

رسالة الشاعر

بقلم سان جون بيرس

قبلت التكريم الذي يوجه هنا(*) الى الشعر ، واني اسارع فارده له . ليس الشعر غالبا في موضع الاحترام. ذلك ان الانفصال يبدو وهو يزداد عمقا بين الاثر الشعري وبين نشاط مجتمع خاضع للعبوديات المادية ، وانه لفصل يقبله الشاعر ولا يسعى اليه ، وهو هو نفسه بالنسبة للعالم اذا ما جرد من تطبيقات العلم العملية .

غير ان مايكرم هنا . انما هي الفكرة المنزهة لدى العالم والشاعر جميعا . انهما هنا ، على الاقل ، لاينظر اليهما على انهما اخوان عدوان . ذلك ان السؤال واحد ، وهما بقيمانه على شفا الهاوية نفسها ، وانما طرق بحثهما هي التي تختلف.

اننا حين ننظر الى ماساة العلم الحديث الذي يكتشف حدوده العقلانية حتى في المطلق الرياضي ، وحين نرى في الفيزياء نظريتين كبيرتين رئيسيتين تضع احداهما مبدأ عاما للنسبية ، بينما تضع الاخرى مبدأ كميا للايقين وللامحدود يحد الى الابد دقة المقاييس الفيزيائية بالذات، وحين نسمع اكبر مجدد علمي في هذا العصر ، مكتشف علم نواميس العالم وواضع اوسع تركيب ذهني بصيغة المعادلات ـ حين نسمعه يدعو الحدس لمساعدة العقل ويعلن ان « الخيال هو التربة الحقيقية للاخصاب العلمي»، بل يذهب الى المطالبة بان يتمتع العالم « برؤية فنية حقيقية » ـ حين نرى ونسمع هذا كله ، الا نكون محقين بان نعتبر الالة الشعرية بمثل شروعية الالة العلمية ؟

والحق ان كل خلق ذهني هو قبل كل شيء « شعري » بمعنى الكلمة الحقيقي ، انها لوظيفة واحدة تلك التي تمارس ، في معادلة الاشكال المحسوسة والمعقولة ، من اجل عمل العالم وعمل الشاعر . وايهما ، ترى ، يذهب ابعد واعمق : الفكرة المنطقية ، ام الخط الشعري ؟ وفي ذلك الليل البدئي الذي يتلمس فيه طفلان اعميان طريقهما ، احدهما مزود بالمعدات العلمية ، والاخر لا تساعده الا ومضات الحدس ، من تراه يخرج اولا الى النور ، وهو اغنى بالتوهج الفوسفوري ؟ ان الجواب ليس بذي اهمية ، فالسر مشترك بينهما . وليست مغامرة الذهن الشعرية الكبرى دون فتوحات العلم الحديث الدراماتيكية . لقد ذعر بعض علماء الفلك من نظرية ما تتعلق بامتداد العالم ، وهذا العالم ليس دون ذلك امتدادا في ضمير الانسان اللامتناهي. فمهما وسع العلم حدوده ، وعلى امتداد قوس هذه الحدود لن نفتأ نسمع موكب صيد الشاعر وهو يغدو . ذلك ان الشعر ان لم يكن ، كما قيل ، « المطلق الحقيقي » فهو اقرب مطامعه واقرب مدركاته ، عند ذلك الحد الاقصى من المشاركة والضلوع حيث يبدو ان الواقع يكاشف نفسه ذاتها في القصيدة . فبفضل الفكرة التشبيهية والرمزية وبفضل الاشراق البعيد للصورة الوسيطة ، وبفضل ذلك الحوار من الاسئلة والاجوبة ، على الف سلسلة من ردود الفعل والتداعيات الغريبة ، واخيرا بفضل جمال لغة تشيع فيها حركة الخالق نفسه ، ينعم الشاعر : بـ « فوقواقعية » لا يمكن ان تكون للعلم . افيكون لدى الانسان ديالكتية اشد سحرا واكثر الزاما له ؟ حين يهجر الفلاسفة انفسهم العتبة الميتافيزيقية ، يتاتى للشاعر ان يحل هناك محل الميتافيزيقي ، واذ ذاك يتكشف الشعر، لا الفلسفة ، عن انه « ابن الدهشة » الحقيقي ، حسب تعبير الفيلسوف القديم .

ولكن الشعر هو اولا ، وقبل ان يكون طراز معرفة ، طراز حياة ـ وحياة كاملة . كان الشاعر موجودا في انسان الكهوف ، وسيوجد في انسان العصور الذرية ، لانه جزء لا يتجزا من الانسان . والاديان نفسها قد ولدت من الحاجة الشعرية ، وهي حاجة روحية ، وبفضل نعمة الشعر عاشت الشرارة الالهية ابدا في الصوان البشري . وحين تنهار الميثولوجيات ، فانما يجد الالهي ملجأ في الشعر، بل قد يجد فيه محطته ورباطه . وحتى في النظام الاجتماعي والحادث الانساني المباشر ، حين تتخلف «حاملات الخبز » في الموكب القديم مفسحة الدرب « لحاملات المشاعل » . فان العاطفة العظمى للشعوب التي تبحث عن الضوء والوضوح ، انما تلتهب بنار المخيلة الشعرية .

انه لفخر الانسان وهو يمشي تحت عبء خلوده ! فخر الانسان وهو يمشي تحت عبء انسانيته ، حين تنفتح امامه انسانية جديدة قائمة على عالمية حقيقية وكلية نفسية . ان الشعر الحديث الامين لرسالته ، التي هي تعميق سر الانسان بالذات ، يأخذ على عاتقه مهمة تعني متابعتها الانسان في كليته واكتماله . وليس في مثل هذا الشعر اي شيء عجائبي . وليس فيه كذلك ما هو جمالي صرف. انه ليس قط فن تحنيط وتعطير ، ولا فن تزيين . هو لا يربي قط لاليء للثقافة، ولا يتاجر بالتماثيل ولا بالشعارات . ولا يستطيع ان يكتفي بأي عيد موسيقي. صحيح انه يحالف في طريقه الجمال مخالفة كبرى ، ولكنه لا يتخذ فيه غايته ولا خميرته الوحيدة . انه يرفض ان يفصل الفن عن الحياة ، والحب عن المعرفة ، فهو عمل وهوس ، وهو

(*) ترجمة الكلمة التي القاها الشاعر الفرنسي الكبير سان جون بيرس حين تسلم جائزة نوبل للاداب في الشهر الاسبق .

قدرة وتجديد دائمان يزيحان الحدود . الحب هو منزله وعدم الخضوع قانونه ، ومحله هو دائما حيث يكون السبق . انه لا يطيق نفسه في الغيبة ولا في الرفض . بيد انه مع ذلك لا ينتظر شيئا من مكاسب العصر . فهو لارتباطه بقدره الخاص وتحرره من كل ايديولوجية ، يعتبر نفسه مساويا للحياة نفسها التي ليس لها ان تبرر ذاتها . انه يعانق في الحاضر ، بضمة واحدة ، الماضي والمستقبل ، والانساني وفوق الانساني ، وكل الحيز الكوني . وما يؤخذ عليه من غموض لا يرجع الى طبيعته الخاصة التي مهمتها ان تنير وتوضح ، وانما يرجع الى الليل نفسه الذي يستكشفه ، والى النفس ذاتها ، والى الخفاء الذي يسبح فيه الكائن البشري . لقد حرمت عبارته على نفسها الغموض وليست هذه العبارة باقل تطلبا من العبارة العلمية .

وهكذا يحقق لنا الشاعر ، بما هو اتحاد كلي مع الكون الصلة بديمومة الوجود ووحدته . والدرس الذي يقدمه لنا هو التفاؤل . ان قانونا انسجاميا واحدا يحكم عالم الاشياء من اجله . ولايمكن ان يحدث فيه ما يتجاوز ، بطبيعته ، مقياس الانسان . فان اسوأ انقلابات التاريخ ليست الا ايقاعات فصلية في دورة اوسع من التسلسل والتجدد . وان آلهات الجحيم اللواتي يعبرن المسرح والمشعل فوق رؤوسهن ، لا ينرن الا لحظة من الموضوع الطويل الجاري . فان الحضارات التي تنضج لا تموت قط بأهوال الخريف ، وانما تبدل ريشها . والجمود وحده هو الذي يهدد بالخطر . وشاعر هو ذاك الذي يقطع امامنا حبل المألوف والمعتاد . وهكذا يجد ان الشاعر نفسه مرتبطا بالرغم منه بالحادث التاريخي ، وليس في مأساة عصره ما هو غريب عنه . انه يعبر للجميع بوضوح عن متعة العيش في هذا العصر العظيم ! ذلك ان الاوان ما يزال متسعا وجديدا ليستطيع المرء ان يستدرك نفسه من جديد . ولمن عسانا نتنازل عن مجد عصرنا هذا ؟

« لاتخف ـ هذا مايقوله التاريخ وهو يرفع يوما قناع العنف عن وجهه ، ويحرك يده المرفوعة الموفقة حركة الالوهية الاسيوية في اعنف لحظات رقصها المدمر ـ لاتخف ولا تشك ، لان الشك عقيم والخوف يستعبد ، بل الاحرى بك ان تصغي الى هذا الخفق الايقاعي الذي تمنحه يدي العليا المجددة للعبارة الانسانية الكبرى وهي في طريق الخلق . وليس صحيحا ان بوسع الحياة ان تنكر نفسها . فليس ثمة ماهو حي اذا صدر عن العدم او اغرم بالعدم . ولكن ليس ثمة ايضا ما يحتفظ بالشكل والقياس وهو تحت دفق الوجود الذي لاينقطع ، ان المأساة ليست في التحول والتغير ، وانما مأساة العصر الحقيقية تكمن في الانفصال الذي يترك له ان يعمق ويتسع بين الانسان الزمني والانسان اللازمني . افترى الانسان المستنير عند منحدر سيظلم عند الآخر ؟ ونضجه القسري ، في مجتمع بلا تواصل ، اتراه لن يكون الا نضجا زائفا ؟ »

ان على الشاعر الذي لايتجزأ ان يؤكد بيننا رسالة الانسان المزدوجة . انه يرفع أمام الروح مرآة اقدر على ان تعكس حظوظه الروحية ، وهو يذكر ، في العصر نفسه ، بوضع انساني اجدر بالانسان الاصلي ، وهو يوحد اخيرا توحيدا اوسع بين الروح الجماعية وسيرورة الطاقة الروحية في العالم . فهل يكون مصباح الشاعر الطيني كافيا لهذا ، ازاء الطاقة النووية ؟ اجل ، انه لكاف اذا تذكر الانسان الطين .

وحسب الشاعر ان يكون ضمير عصره المبكت .

« ترجمة الاداب »

البعث

في كل يوم صليب ، عليه رأس تدلى
عيناه بئران فاضا بالحقد ، سيفان سلا
والقيد في معصميه ، حواليهما خلت صلا
وصوته حشرجات ، مبحوحة ليس الا
وموكب من عرايا ، أضلهم من أضلا
تحدروا مثل سيل .. من تلعة قد أهلا
لم يعرفوا عنه شيئا الا الاقل ... الاقلا
صاحوا ، وقالوا ارجموه : ففيه ابليس حلا
فتوجوه بشوك ، واحكموا القيد فتلا
دقوا المسامير فيه ، صبوا له الماء مغلى
قالوا له : جئت تغوى شبابنا كي يضلا
وبينهم سامري(١) من عسجد صاغ عجلا
وقال : هذا اله ، فهمهموا ... ما أجلا
.. لما رآهم خرافا ، اطاعت الذئب جهلا
وعصبة قد ارادوا لهم شقاء ، وذلا
بكى بحب عليهم ، فانبت الدمع فلا
وقال : يا قوم . اني ظننتكم لي اهلا
«ما جئت احمل ظلما، بل جئت احمل عدلا»(٢)
وثورة كي تهبوا فتطردوا المستغلا
ومات . لكن شيئا منه على الارض ظلا
.. ومر عام ، فعام . وقصة الصلب تتلى
حكاية من عجوز ، تنيم في الليل طفلا .
ظلت مع الناس تنمو ، كالارض بالنبت حبلى
ومثلما الارض تلقى بما اجنته .. قبلا
من نومه هب شعب ، من طول ما نام ملا
فابصر الفجر يبدو خلف السحاب . كخجلى
فقال : يا فجر اقبل ، وشده ، فاطلا
من يومها عاد حيا في الارض من مات قتلا

القاهرة — **كيلاني حسن سند**

١ ـ قصة السامري مشهورة في القرآن الكريم
٢ ـ هذا البيت يشير الى آية في الانجيل